مقدمـــة
اللغة المصرية القديمـة

تعتبر لغة الإشارة هى أقدم وسائل التفاهم بين أفراد المجتمعات القديمة فهى وسيلة التعبير عن الأفكار، غير أن الكتابة كانت هى البداية لما يعرف بالعصور التاريخية باعتبارها (الكتابة) مادة لتسجيل تاريخ وحضارة الإنسان وتعبيرا عن استقراره، ومن المهم الإشارة إلى أن هذه الوسيلة – وسيلة التعبير عن الفكر الإنسانى – جاء التفاعل بينها وبين كتابات (أو لغات) الشعوب المجاورة وعليه فقد جاءت اللغة المصرية القديمة كأداة مهمة لترجمة أحاسيس المصرى القديم ورغباته معبرة عن فكره تستقى مادتها من الطبيعة مصدر الإلهام للإنسان وكذلك البيئة المحيطة لتعّبر الصورة عن المضمون[١].

ومع الاتفاق على استخدام علامات معينة للتعبير والتى أخذت بالتدريج تعبر عن الصوتيات إضافة إلى المضامين، وإلى أن استقرت الفكرة ظهرت مراحل خطية تتناسب وظروف العصر، فمن الهيروغليفية صعبة النقش وما تتطلبه من وقت وجهد، انتقل المصرى إلى الخط الأبسط (الهيراطيقية) مع ضوابط للتبسيط فى ظل مواد أكثر سهولة للكتابة عليها (كالبردى) الذى كانت بدايته منذ الأسرة الأولى وإن كان أول نص مكتوب على ورق البردى بالهيراطيقية يرجع للأسرة الخامسة من معبد ساحورع الجنزى فى أبو صير جنوب الجيزة. وفى العصر الصاوى (الأسرة السادسة والعشرين) ظهر الخط الديموطيقى الذى هو أكثر اختصارا من الهيراطيقى وازدهر فى العصرين اليونانى والرومانى مسجلا موضوعات من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وختم المصرى جهوده فى الفترة البطلمية بظهور الكتابة القبطية آخر مراحل تطور اللغة المصرية.

واللغة كائن حى ينمو ويتطور وينطبق عليه ما يجرى على البشر من قوانين الطبيعة، وأنه لمن الأمور الخارقة فى تاريخ اللغة أن تبقى لغة وتزدهر لمدة تقارب خمسة آلاف عام، وهو ما حدث مع لغة المصريين القدماء[٢] ؛ إذ بقيت منذ القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد وحتى انتهى استخدام اللغة القبطية، وهى آخر مراحل تطور اللغة المصرية القديمة رسميا عام ٦٤١م فى القرن السابع الميلادى، بقيت بعدها مستعملة كلغة تراتيل فى الكنائس والأديرة[٣].

وتحوى اللغة المصرية على ما يقارب ثلاثمائة أصل مشترك بينها وبين اللغات السامية، وأكثر من مائة أصل مشترك مع لهجات شمال إفريقيا، ومنها أنظمة تصريفات الأفعال واستخدام الأفعال المساعدة والضمائر المختلفة والتمييز بين المذكر والمؤنث واستخدام صيغتى المثنى والجمع للمذكر والمؤنث مع مميزات عدة انفردت بها اللغة المصرية.

ومع هذا فلم تبقى اللغة المصرية جامدة بل بقيت دائمة التطور فتغير فيها الكثير من المقاطع والألفاظ، ودخلت ألفاظ جديدة وأخرى مستعارة من لغات معاصرة[٤]. وجاء تميزها اللغوى أيضا فى احتفاظها بمبادئ نحو وصرف اختلفت بها عن غيرها من لغات العالم القديم.

ولقد كانت اللغة المصرية غنية بمفرداتها التى يزيد ما هو معروف منها عن عشرين ألف كلمة، وعدد من الرموز الهيروغليفية يزيد عن سبعمائة رمز، ولربما استغرق هذا الجهد لاختصاره إلى كتابة تتألف من أربع وعشرين حرفا بضعة آلاف من الأعوام، إضافة إلى ما يقارب المائة وخمسين رمزا صوتيا تكتب فرادى أو فى مجموعات، مع استخدام المكملات الصوتية والمخصصات التى وصلت إلى ما يقرب من مائة مخصص على الأقل[٥].

واللغة المصرية لغة مطواعة هيأت لها ظروف الحياة فى هذا الوادى ما لم يهيأ لغيرها، فلم تقف جامدة بل كانت دائمة التطور.

ولغة الكلام أيام الدولة القديمة صارت لغة فصيحة تكتب بها الآداب أيام الدولة الوسطى، بينما على عهد إخناتون كانت لغة الشعب هى اللغة الرسمية وظلت قائمة مدة خمسة قرون على الأقل. وفى العصر الصاوى كان الارتداد للقديمة والنهل من الموارد اللغوية وأساليبها الفنية بينما الشعب يكتب بلغة الكلام فى أمور حياته اليومية بخط سريع (الديموطيقية).

ولما دان الشعب بالمسيحية كتُبت اللغة بحروف يونانية (القبطية) وبعدة لهجات: البحيرية، الصعيدية، الإخيمية، الفيومية، واللهجة المنفية (لغة منف).

وعن اللغة المصرية القديمة واللغات السامية:

ترتبط اللغة المصرية بمجموعة اللغات السامية (الأكدية، الآشورية، البابلية، الأرامية، العربية، العبرية وغيرها)، كما ترتبط أيضا بمجموعة اللغات الحامية فى شرق إفريقيا كالصومالية واللهجات البربرية فى شمال إفريقيا.

وعن ارتباط اللغة المصرية باللغات السامية يجىء التشابه فى تراكيب جذور الألفاظ من مجموعة الأحرف الساكنة وهى ثلاثة أحرف، كذلك فى القواعد النحوية[٦].

فى قواعد النحو والصرف:

فقد اشتركت اللغة المصرية مع جيرانها فى وجود أحرف: العين والحاء والقاف، وشيوع المصدر الثلاثى، وعدم وجود أحرف الحركة، واستخدام تاء التأنيث واستخدام حرف الميم للدلالة على النفى، ووجود ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب وواو الجماعة وياء النسب والإضافة المباشرة وغير المباشرة وإلحاق الصفة بالموصوف واستخدام الجمل الاسمية والفعلية لتراكيبها المعروفة، وإضافة الميم إلى الكلمة لإعطاء معانى مختلفة.

بين اللغة المصرية وما جاورها من لغات البلاد المجاورة:

– دخلت اللغة الإنجليزية بعض الألفاظ المصرية القديمة إما عن طريق التوراة والنصوص العربية أو عن طريق الإغريقية واللاتينية كما فى كلمات إجية Egypt، برعا Pharaoh، واحة – واحات Oasis، أبنوس Ebohy، نطرون Natron، بازلت Basalt، كيمياء Chemistry وغيرها (وربماSeat من)، وعن الجذور العربية للغة الإنجليزية فهناك الكثير مما يمكن تأكيده باعتباره أصلا للغة اللاتينية وهى أصل اللغة الإنجليزية[٧].

– فى الليبية قارب بعض الباحثين بين اللغة المصرية القديمة وأفعال فى الليبية ولغة البربر الليبيين فيما يقارب ٢٦ فعلا وكذلك ١٨ اسما وصفة فى اللغتين.

– ومع لغات الجنوب لا سيما لغة البجاوية (مثل قبائل البشارية والعبابدة وفروعها) وكذلك اللغة الصومالية ما يظهر نوعا من التقارب اللفظى بين مفردات هذه اللغات واللغة المصرية ربما نتج ذلك عن الاتصال التجارى وانتقالات الرعاة أو حتى خلال النفوذ المصرى على الجنوب خلال العصور الفرعونية، ويضم ما يقرب من عشرين اسما وفعلا متشابهة.

تفرد اللغة المصرية عن جيرانها:

برغم مشاركة اللغة المصرية لجيرانها من اللغات فى الشرق والغرب والجنوب، فإنها تفردت ببعض الميزات كان منها ابتداع أكثر من تسمية للكلمة، فقد عبروا عن الطفولة بما لا يقل عن عشرين لفظة، وعن السماء بنحو أربعين اسما وصفة وعن العرش بثمانية عشر اسما وصفة وعن حركات المشى والذهاب بنحو أربعين فعلا وعن حالات الفرح والاستمتاع بنحو أربعين فعلا.

وتفردت اللغة المصرية أيضا فى استخدام صيغ فعلية مرنة يمكن عن طريقها التعبير عن جمل بسيطة قصيرة بنحو عشرين أسلوبا مختلفة الأزمنة وبصيغ فعلية واسمية مختلفة[٨].

بين اللغتين المصرية والعربية

يضم المعجم الرئيسى للغة المصرية القديمة من المشترك المصرى العربى ستة وستين لفظا من مجموع ثلثمائة وتسعة من الألفاظ السامية، كذلك معجم تأصيل ومناظرة الألفاظ القبطية يضم من الألفاظ المصرية – العربية المشتركة – مائة واثنين وسبعين لفظا من مجموع أربعمائة وتسعة وستين لفظا من الألفاظ السامية.

والمعروف فى علم الاشتقاق اللغوى أنه قد يتشابه فى جميع اللغات بل وتتوافق الكلمات المشتقة من الجذر الواحد ويزيد أو يقل عدد المشتقات فى كل لغة من الجذر الواحد حسب تطورها اللغوى، ولكن من النادر بين أى لغتين أن يتفقا فى استخدام الجذر الواحد، أو أحد مشتقاته للتعبير عن معنى مجازى، وهذا ما حدث بين اللغتين المصرية القديمة والعربية فى مواضع كثيرة[٩].

وفى الصلات ما بين اللغتين المصرية القديمة والعربية فى المفردات والألفاظ بين قواعد اللغتين ما يبرهن على عمق الرابطة بينهما مع الوضع فى الاعتبار أن قواعد أية لغة خضعت لسَّنة التطور كما حدث للغة العربية ذاتها، كما كان الاختلاف القواعدى ملحوظا بين قبائل الجزيرة العربية ذاتها[١٠].

ومما يوضح عمق الصلة ما بين اللغتين أن الكثير من التسميات المصرية القديمة لازالت باقية فى اللغة العربية خاصة فى تسميات الأعلام[١١]. كما أمكن التقريب بين تسميات الأشخاص فى مصر القديمة ومثيلاتها التى مازالت باقية فى اللغة العربية[١٢]. وفى تسميات البلدان فلا يزال الكثير منها باقيا فى تسميات المحلات العمرانية الحالية[١٣]. هذا فضلا عن كم الموروثات الحضارية فى العادات والتقاليد[١٤]، والطريف أن بقيت تركة هائلة من الموروثات الحضارية فى الألفاظ العامية تضرب بجذورها فى أعماق اللغة المصرية[١٥]. مما يستنتج معه التواصل الحضارى وهى صفة لصيقة بالمصرى منذ الأزل لا يحدّها بعد الشقة فى الزمان وطول الفترة التاريخية.

وهناك فى اللغة ما يسمى بجوامع الكلم فى التعبير عن كثير من المعانى بالقليل من الألفاظ، وذلك باستخدام القلب والإبدال والتعاقب فى الأحرف المماثلة والمتجانسة والمتقاربة فى مخرج الصوت والصفة، ويلاحظ أن التطور الصوتى يلازم الإنسان منذ طفولته وحتى قدرته على النطق الصحيح لمخارج الحروف والألفاظ (مثلا الطفل عند تعبيره عن طلب الماء ليشرب يتدرج نطقه بين: أسلب / أشلب / أشرب... وهكذا).

وقد ذكر «إيرمان» إن المصرى القديم استخدم تداعى المعانى للكلمة الواحدة ولكنه قصر نظام الاشتقاق على الكلمة الواحدة بتغيير المخصص حسب المعنى، ويمكن تشبيه المخصص فى اللغة المصرية مقابل التنوين فى اللغة العربية (حيث يمكن عن طريق التنوين تغيير معانى الكلمة الواحدة) وقد أعتبر ذلك تطورا فى اللغة من لغة تصويرية إلى لغة صوتية مما أوجد نوعا جديدا من الاختصار الشكلى للصور والعلامات يرافقه أيضا اختصار صوتى، وتكرار الحرف مرتين فى اللغة المصرية يقابل التشديد فى اللغة العربية وربما يقابل الغنة فى القراءات القرآنية.

وكما كتبت اللغة العربية بعدة خطوط كالنسخ والرقعة والثلث والكوفى والديوانى.. إلخ، فقد كتبت اللغة المصرية القديمة بخطوطها أو كتاباتها: الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية والقبطية.

خصائص اللغة المصرية القديمة

مع تشابه اللغة المصرية مع جاراتها من مجموعة اللغات السامية خاصة اللغة العربية لاسيما فى القواعد النحوية واللواحق الصرفية كما سبق الإشارة، فقد تفردت اللغة المصرية بعدة مميزات كان منها أنها لغة ذات قواعد ثابتة وملزمة، وهى لغة مرنة تقبل الصقل والنمو والتطور وهى لغة حافلة بالكنايات والاستعارات والتشبيهات المنطقية البديعة.

وهى لغة غنية مثقفة تصلح للتعبير الأدبى نثرا وشعرا بل يمكن القول بأنها «لغة نديّة بماء الشعر، مشتعلة بصهد الحياة، مبتلّة – فى أحايين كثيرة – بانهمار التعبيرات البلاغية دون تكلف وحافلة بجمال التكوين اللغوى».وهذه اللغة أيضا تصلح للتعبير العلمى خصوصا فى مجالات الطب والكيمياء والهندسة والفلك.

وعن قواعد اللغة المصرية فقد شملت الاسم والفعل والظرف، والتفرقة بين المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع (فى الاسم والنوع والعدد) وكذلك فى بنية الجملة من حيث المبتدأ والخبر فى الجملة الاسمية والفعل والفاعل والمفعول فى الجملة الفعلية وكذلك المضاف والمضاف إليه.

شملت قواعد اللغة أيضا تبعية الصفة للموصوف (فى النوع والعدد) وفى كافة أحوالها اللغوية، كما شملت الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وأدوات الاستفهام وحروف الجر واسما الزمان والمكان وحروف العطف، وعرفت اللغة المصرية الأعداد والأرقام والكسور التى استخدم للتعبير عنها بعض الرموز والمخصصات.

عصور اللغة المصرية القديمة
وخطوط كتاباتها

بدأت محاولات المصرى القديم للكتابة قبل الأسرة الأولى(*) بحوالى قرنين من الزمان ببعض العلامات التصويرية وبعض المفردات البسيطة استخدمت فيها صور الطبيعة والبيئة المحيطة للتعبير عن الفكرة (كاستخدام علامة موجة المياه للتعبير عن الماء والمعانى المرتبطة به، وعلامة الدائرة ذات الخطوط المتقاطعة للدلالة على مدينة ذات شوارع مستقيمة، وغيرها) ولم يعرف المصرى القديم استخدام حروف الحركة فى اللغة إلا فى مراحلها الأخيرة (اللغة القبطية).

وفى تتابع زمنى ومع النضج الفكرى للإنسان المصرى استطاع الكاتب تبسيط كتاباته الهيروغليفية (والتى تعنى الكتابة المقدسة وكانت قد كتبت على الأماكن المقدسة كالمعابد والمقابر أو حتى على الآثار بصفة عامة) وكان الأمر يتطلب جهدا شاقا فى تنفيذها فضلا عن صعوبة تصويب الأخطاء إذا ما نُقشت على الأحجار وغيرها. من هنا لجأ المصرى إلى تبسيط لغته بخط عُرف بالهيراطيقية (ويعنى الخط الكهنوتى) وهو الذى استخدمه الكهنة فى كتابة النصوص الدينية خاصة فى العصور المتأخرة وتطلب مواد تناسب الخط السريع كالبردى مع أقلام من البوص، ثم فى مرحلة تالية عرف المصرى كتابة أكثر اختصارا عُرفت بالديموطيقية (وتعنى الخط الشعبى) والذى أصبح ملائما للمعاملات اليومية (قارن خط الرقعة فى اللغة العربية على سبيل المثال) وجاءت آخر مراحل تطور اللغة المصرية فى اللغة القبطية والتى كُتبت بحروف من الأبجدية اليونانية مضافا إليها سبع علامات من الكتابة المصرية الديموطيقية، وقد كُتبت القبطية بعدة لهجات منها الصعيدية والبحيرية والفيومية (أو البشمورى) والأخميمية والأخميمية الفرعية واللهجة المنفية وغيرها. ونتيجة الامتداد الزمنى الطويل للغة المصرية (منذ عام ٣٢٠٠ ق. م. تقريبا) حدثت تغيرات فى النحو والصرف وقواعد الهجاء وفى المخصصات والقيم الصوتية بحيث يمكن تمييز العصور اللغوية للغة المصرية القديمة وفتراتها فيما يلى:

(*) قبل اختراع الكتابة كان الاتصال عن طريق الكلمة المنطوقة (المرحلة الشفاهية).
– بعد اختراع الكتابة كان الاتصال المكتوب أو ما يعبر عنه (بالاتصال السطرى والطباعى).
– بعد اختراع التسجيلات والفيديو والحاسب أصبح (الاتصال اللاتزامنى).
– حسن على محمد، ثورة الإعلام، دار المعارف بالقاهرة، ٢٠٠٣م.

١ – **لغة العصر القديم:** أو لغة الدولة القديمة Old Egyptian: وشملت الأسرات منذ الأولى وحتى الأسرة الثامنة وأهم خصائصها اللغوية فى نصوص الدولة القديمة وعلى الأخص نصوص الأهرامات.

٢ – **لغة العصر الوسيط:** أو اللغة الوسيطة Middle Egyptian: وتشمل الأسرات منذ الثامنة وحتى منتصف الأسرة الثامنة عشرة وهى مرحلة النضج للغة المصرية فى أكمل مظاهرها أو ما يعرف باسم العصر الذهبى.

٣ – **لغة العصور المتأخرة:** أو اللغة المتأخرة Late Egyptian: وشملت الأسرات منذ منتصف الأسرة الثانية عشرة وحتى الأسرة الخامسة والعشرين كما يتمثل فى نصوص عصر الرعامسة وأشهرها نص معركة قادش.

٤ – **الهيراطيقية:** ترجع أولى الوثائق المكتوب بها بالهيراطيقية إلى الأسرات الأولى وظلت مستخدمة حتى نهاية الدولة الحديثة بما يقارب الألفى عام واستخدمت للأغراض الإدارية والمستندات الرسمية والكتابات الأدبية الثقافية والرسائل الشخصية (الخطابات) وكتبت على أوراق البردى والأوستراكا.

٥ – **الديموطيقية:** خط المعاملات اليومية وبدأ استعمالها منذ القرن السابع قبل الميلاد وبقواعد ألفاظ جديدة وظلت حوالى ألف عام يستخدمها موظفو الحكومة فى تحرير العقود والمستندات القضائية والإدارية والكتابات الأدبية والأساطير والسحر وطقوس الجنازات حتى القرن الخامس الميلادى(*).

٦ – **اللغة القبطية:** يمكن اعتبارها آخر مراحل تطور اللغة المصرية القديمة وهى التى مازالت حتى عصرنا الحاضر لغة التراتيل فى الكنائس والأديرة وقد كُتبت لكثير من النصوص الدينية باللغة القبطية وصارت لغة الحديث بين أقباط مصر خاصة بعد الفتح العربى حفاظا منهم على هويتهم.

جدير بالذكر أن هناك بعض العائلات من الأقباط مازالت تتحدث فيما بينها باللغة القبطية. ويشار إلى أن القديس كيرلس الفيلسوف ومعه أخيه، عندما قاما بوضع الأبجدية الروسية فى القرن التاسع عشر أدخلا بعض الحروف القبطية المأخوذة من الديموطيقية فى الأبجدية الروسية.

(*) فى العصر اليونانى الرومانى سقط حرف العين من حروف الكتابة إلى جوار حرف الخاء بإدغام ساكنين متشابهين فى النطق: راجع مقالة (فيرمان) Fairman.

جدير بالذكر أن آخر نص كتب بالديموطيقية كان من جزيرة فيلة بأسوان مؤرخا بعام ٤٧٠م.